

مظاهر التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّة محاولة لبناء منهجية تكاملية للتحليل الدلالي لبنية النصّ في القصة القرآنية



تأليف: حمدي الهدهد

مراجعة: سيف الدين الفقراء

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة

مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية.

الناشر: دار دجلة، عمان، 2020، 176 صفحة.

استعمال

الحمد لله ربّ العالمين، الذي علّمنا أن نحمده، ويسّرنا لطاعة أمره في الصلاة على سيّد البشر محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتمّ التّسليم، وعلى آل بيته الأطهار وصحابته وتابعيه بإحسان إلى يوم البعث. أمّا بعد:

فهذا عرض ومراجعة لكتاب (مظاهر التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّتين) للدكتور حمدي صلاح الهدهد، وهو كتاب يقع في (176) صفحة من القطع المتوسّط، وصادر عن دار دجلة في عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، لعام

ISSN : 1026-9576

DOI : 10.34120/0117-039-155-008

2020م؛ أيّ أنّه كتاب حديث في إصداره. ويتكوّن الكتاب من فصول ثلاثة، أولها: التّناسب والتّماسك على مستوى البنية الكبرى في القصة القرآنيّة، وثانيها: مظاهر الانسجام الصوتي والتّناسب الدلاليّ في القصة القرآنيّة، وثالث الفصول: مظاهر تناسب البنية التركيبية والترابط النّصيّ في القصة الكريمة.

أمّا المؤلّف؛ فهو عالم جليل يعمل في جامعة طيبة بالمملكة العربيّة السعوديّة، وله مؤلّفات وأبحاث في الدلالة القرآنيّة، منها: الدلالة التركيبية في سورة الفتح. والواو تبادلها وتعدد وظائفها في القراءات العشر، دراسة تركيبية دلاليّة. وأثر السياق في بيان علل اتفاق القراءات العشر فيما اختلفت في نظيره. وأثر القراءات في تنوع استعمالات «لا»: دراسة وظيفية تركيبية. وأثر السياق في فقه معاني القراءات، وكتاب: مصطلحات علم القراءات في ضوء علم المصطلح الحديث، وهو في الأصل رسالة دكتوراه، وغير ذلك من الدراسات القرآنيّة واللغويّة.

وأذكر هنا هذه البحوث لهذا المؤلّف الجليل لبيان صلته بالدلالة القرآنيّة ومدى اهتمامه به في مسيرته البحثية، وهذه مسألة كان لها صدى بينّ في الدّراسة التي تناولها في هذا العرض، وانعكست تجربته الطويلة على الكتاب منهجاً ومضموناً.

أمّا التّناسب الدلالي والترابط النّصيّ فهما موضوعان فيهما من الدراسات والبحوث ما فيهما، وفيهما من الدراسات في حقل القرآن الكريم ما هو عصيّ على الحصر في هذه المقالة، وتأتي دراسة حمدي الهدهد لتشكّل منعطفاً جديداً في عمق التّحليل والربط بين العناصر المنتجة للدلالة، المحقّقة للترابط النّصيّ في قصة صاحب الجنتين.

أولاً - مظاهر التّناسب الدلالي والترابط النّصيّ في قصة صاحب الجنّتين: قراءة في المنهج

تجمع هذه الدّراسة معالم منهجيّة تقوم على معطيات التّحليل النّصيّ المنبثقة من علم لغة النّصّ الذي انتقل من نحو الجملة إلى نحو النّصّ، ويتخذ من الكليات النّصيّة الدلالية الكبرى أداة لفهم العناصر المكونة للنّصّ وتفسيرها، وبيان أسرارها اللغويّة والبيانيّة،

ومدى إسهامها في تحقيق الترابط النَّصِّي .

إنَّ أكثر ما يميّز هذا الكتاب أنّه يؤسس لمنهج تكامليّ في التحليل النَّصِّي ، من خلال البدء في تحليل البنية الدلالية الكبرى في النَّص ، ثمّ الانعطاف إلى البنى الصغرى المكونة للنَّص وتحليلها تحليلاً متّسقاً يكشف أسرارها، ويعلّل أسباب وجودها على هذه الهيئات، ويستنتق قيمها الوظيفيّة في تحقيق الدلالة الكبرى، ويكشف عن دورها في تشكيل بلاغة القرآن وإعجازه في اختيار الصّيغ والربط بينها في بناء فنيّ معجز . وأحسب أنّ هذه المنهجية ستكون فتحاً في مناهج الدراسات العربية في علم المناسبات أو التناسب الدلاليّ، والترابط النَّصِّي لسور القرآن، وستكون إسهاماً في الحدّ من الدراسات النمطيّة المكرورة التي اعتدنا مطالعتها في جهود معظم الباحثين في هذه الموضوعات .

والمطالع لهذا الكتاب يجد نفسه أمام دراسة تطبيقية نموذجية لهذا المنهج التكامليّ في التحليل النَّصِّي ؛ فبدأ دراسته بمدخل للتعريف بعناصر الدّراسة ؛ مثل : المناسبة والترابط أو التماسك النَّصِّي ، ثمّ بنى الفصل الأول من كتابه لعرض مظاهر التناسب والتماسك الدلاليّ على مستوى البنية الكبرى في قصة صاحب الجنّتين، وانطلق من هذه البنية إلى دراسة البنى الصغرى في الفصلين التاليين، على مستوى الأصوات، والمفردات (البنى الصرفيّة) ثمّ التراكيب (البنى النحويّة)؛ ليعلّل هيئاتها وصور مجيئها على هذا النحو، ومدى مناسبة اختيارها لتحقيق البنية الكبرى في القصة .

لم يغفل الباحث وهو يبحث في علم المناسبات أو قلّ عن التناسب، عن الحديث عن صلة قصة صاحب الجنّتين بالسورة التي وردت فيها؛ لأنّ تحديد مناسبة السورة مرتكز أساس في فهم ما اشتملت عليه السورة من أفكار رئيسة، وقصة صاحب الجنّتين جاءت في سورة الكهف، وفهم هذه القصة لا ينفكّ عن علم بمناسبة هذه السورة، وارتباطها بما قبلها وما بعدها من السور . وصلة قصة صاحب الجنّتين بما قبلها وما بعدها في سورة الكهف شرط لفهم مقاصدها؛ لئلا تكون هذه القصة منبّئة من بيتها التي وجدت فيها، وخلص الباحث الكريم إلى أنّ الدلالة الكلية للسورة تجلّية الصراع بين الإيمان والماديّة، وقصة صاحب الجنّتين حلقة في سلسلة الأحداث التي تشكل مظهراً لهذا الصراع .

ومن هذه الكليّة انتقل الباحث إلى القصة وبيان جوهرها العام وصلتها بما قبلها وما بعدها، وعرض مقولاتها، لتكون الدلالة النَّصِّيّة الكبرى مدخلاً وسبيلاً إلى دراسة البنى الصغرى، وكشف مدى إسهامها في تحقيق هذه الدلالة، وإلى أي مدى تعاضدت في تحقيق مقاصد المناسبة والترابط.

وقد استند البحث في دراسة البنى الصغرى إلى منهج إحصائيّ قويم في كشف أسرار الجوانب الصوتيّة للفاصلة القرآنية في هذه القصة، وملامح الطول والقصر، ودلالة التنوين، وتحليل القيم الإحصائيّة بما يكشف دلالة هذه القيم ودورها في تحقيق البنية الكبرى للقصة، وهذا الإحصاء كان أداة للباحث في المستوى الصرفيّ؛ أي في المبحث الثاني من الفصل الأول، وكذلك اتخذ الباحث أداة له في تحليل مظاهر تناسب البنية التركيبية والترابط النَّصِّيّ في الفصل الثالث، وهذا المنهج لا سبيل فيه للاجتهاد مع الأرقام التي تعدّ لغتها الأصدق في التعبير، وتمنعك من الانطباعية أو الاعتباطية في التأويل والتفسير، وأحسب أنّ الباحث تمكّن من تحليل إحصائه تحليلاً يتفق مع الدلالة الكبرى التي رسمها لهذه القصة.

إنّ المنهج الذي أسسه الباحث في التحليل للتناسب والترابط النَّصِّيّ في قصة صاحب الجنتين يشبه إنجاز مهندس معماريّ تصوّر هيئة لبناء رائع جميل، وانتقل من صورته الكلية إلى تفصيلاته وخرائطه التي تحقّق له إنجاز هذا البناء متماسكاً ومتناسباً في مكوناته، ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إنّ الدراسات السابقة عن التناسب الدلاليّ في سور القرآن الكريم، سعت في منهجها إلى استشراف القيم الدلالية للأصوات والوحدات الصرفية وللتراكيب في تشكيل دلالة السور، وثمة ملمح بارز في أكثر تلك الدراسات، وهو تكرار منهجها وموضوعاتها بصورة نمطيّة، ولكنني لم أصادف دراسة - فيما طالعت - سارت على النهج الذي أسسته دراسة حمدي الهدهد في الانطلاق من البنية الكبرى إلى البنى الصغرى في القصص القرآني، واعتماد المنهج الإحصائيّ التحليليّ أداة في البحث والتحليل والتفسير.

إنّ هذا المنهج تتجلّى فيه قدرة الباحث على تحليل الخطاب في قصة صاحب الجنتين،

وفق تقنيات علم لغة النَّصِّ، وتوظيفه في رجوع النظر في علم المناسبة في القرآن الكريم، ليصهر فيه الأصالة والمعاصرة في البحث والتحليل.

ثانياً - مظاهر التناسب الدلالي والترابط النَّصِّي في قصة صاحب الجنتين: قراءة في المضمون

الكتاب يدور في مضمونه حول التناسب الدلالي والترابط النَّصِّي في قصة صاحب الجنتين، وهي القصة الثانية في سورة الكهف، وفيها ضرب الله - تعالى - مثلاً رجلين أنعم - سبحانه وتعالى - على أحدهما بجنتين عظيمتين، فقابل صاحب الجنتين نعمة الله بالكفر والاستكبار والغرور، وغرس في قلب الآخر الإيمان بالله وطاعته، فقابل نعمة الله بالشكر وابتغاء فضله، فنصح صاحبه فكفر واستكبر وقابل النصح بالتعالي، فدعا عليه فأهلك الله جنتيه، وهذه قصة يتجلّى فيها عنصر الإبهام البيانيّ في إغفال الله أسماء أصحابها، وزمانها، ومكانها؛ لأنّها نموذج نمطيّ يتجدّد، له مظاهر في كلّ زمان ومكان.

تمثّل القصة الصراع بين الإيمان والمادّيّة، كما قال المؤلّف، وفيها تصحيح للعقيدة وتقويم للسلوك، يقول الرجل لصاحبه في تلك السورة: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾؛ ففي آيات هذه السورة ثنائيات متضادة: الثواب والعقاب، الإيمان والكفر، الشكر والجحود، التواضع والصلف، والغبطة والندم، الدنيا الزائلة والآخرة الباقيّة.

لقد انطلق الدكتور حمدي الهدهد في البحث عن مظاهر التناسب الدلاليّ والترابط النَّصِّي في هذه القصة من بنية كبرى تجلّت فيها ثنائيّة الإيمان والمادّيّة، وهي بنية لها امتداد فيما قبلها وما بعدها من سور القرآن، ولها صلة كبرى بمضمون قصص سورة الكهف التي تمثل بيئة النَّصِّ العامّة.

جاء الكتاب في هيكله مبنياً من ثلاثة فصول، تتربط فيما بينها كالبنيان المرصوص. عرض في الفصل الأول من كتابه مظاهر التناسب والتماسك الدلاليّ على مستوى البنية

الكبرى في قصة صاحب الجنتين، وهذا مرتبط بالبحث الدلالي الذي يوظف تقنيات تحليل الخطاب وعلم لغة النص، الذي ينطلق من بنية كبرى إلى بنى صغرى تسهم في تكوين المعنى العام الذي يفسر جزئيات النص وهيئاتها ويغوص في دقائقها. وانطلق من هذه البنية إلى دراسة البنى الصغرى في الفصلين الثاني والثالث، فدرس في الفصل الثاني الدلالة والتناسب على مستوى الأصوات، والبنى الصرفية، ثم درس في الفصل الثالث التراكيب النحوية، وكان الباحث موفقاً في تقنيات التحليل وأدواته في ربط الأجزاء بالمعنى الكلي، وبيان أسرار مكونات النص على مستوى الصوت والصرف والنحو في تحقيق الدلالة ومناسبتها، ومدى ترابطها وتماسكها في تشكيل البنية الكبرى لقصة صاحب الجنتين.

إن القضايا الرئيسة في الفصل الأول تتمثل في مقصود سورة الكهف، وهي تشكل بيئة الخطاب وجوه العام، ثم مناسبة قصة صاحب الجنتين لما قبلها وما بعدها؛ لأن ذلك جوهرى في إدراك الترابط، ثم عرّج على الجو العام والتماسك الدلالي في القصة القائمة على تقنية الحوار والمجادلة، وكان الباحث موفقاً في الربط بين المقولات وبحث أدوات تماسكها.

وجاء الفصل الثاني ليمثل اللبنة الأولى في تحليل القصة؛ فبدأ بتحليل الانسجام الصوتي وربطه بالتناسب الدلالي ليكشف عناصر البناء الجزئية المشكّلة للقصة، واستطاع أن يبيّن الإيحاءات الدلالية للفاصلة القرآنية في القصة، وأن يربطها بالتناسب، وكذلك سخر الملامح الأدائية الصوتية في الطول والقصر الصوتيين وربطها بالمناسبة الدلالية. وتجاوز الدلالة النحوية للتنوين إلى الجوانب الإيقاعية الدالة على وظيفة في التناسب. أمّا المبحث الصرفي؛ فكان غنياً في التحليل للصيغ الفعلية ودلالاتها، وربط ذلك بالبنية الكبرى، وكذلك البنى الاسمية الماثلة في المشتقات، وأبنية الجموع، والغوص في قيمها الدلالية.

وفي الفصل الثالث يقف الباحث الكريم على تناسب البنية التركيبية، فينهض بالتحليل الجملي بحسب المقولات الواردة في القصة، ويطوف في عناصر الترابط ممثلة بالإحالة، والحذف، والتكرار، والعطف، وحروف الجرّ، وأثر هذه العناصر في تحقيق

التماسك، وإسهامها في تشكيل المعنى العام أو الدلالة الكبرى التي تتكون من دلالات صغرى تتعاقد في تحقيق مقاصد القصة .

إنّ الكتاب غنيّ بالتحليلات العميقة، وفيه استنطاقٌ قيّمٌ للقيم الدلالية على مستوى الأصوات، والبنى الصرفية، والتراكيب، وكانت لغة الأرقام الإحصائية تتعاور وتتعاقد في تشكيل الدلالة الكبرى، وقد أحسن الباحث توظيفها في التحليل الدلاليّ بشكل لم نعهده من قبل فيما اطلعنا عليه من دراسات في التناسب الدلاليّ والترابط النصّي في سور القرآن الكريم .

لقد تكاملت مضامين الكتاب في تحقيق أهدافه التي رسمها الباحث، والتقسيم الذي نهض به الكتاب يمكن أن يشكل منهجاً جديداً في التحليل المتكامل لسور القرآن الكريم، القائم على الانطلاق من البنية الكبرى إلى البنى الصغرى في التحليل، واتخذ من الجو العام والمقصدية أداة لتبرير الوحدات المكونة للخطاب على مستوى الأصوات والصرف والتراكيب النحوية .

ثالثاً - مظاهر التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّة: قراءة في الأصالة

علم المناسبة فيه من الدراسات قديماً وحديثاً ما يصعب حصره في هذه المراجعة، وخلاصة قولنا فيه: إنّه غنيّ جداً بالدراسات، والترابط النصّي وإن كان منهجاً حديثاً في التحليل فإنّ القرآن غنيّ بالدراسات التي دارت حوله وتبحث في عناصر الترابط. وما زالت الدراسات النصّية في القرآن تتوالى، ويتخذها الباحثون ميداناً لرسائلهم وبحوثهم ومصنفاتهم .

أمّا قصة صاحب الجنّتين؛ فهي جزء من سورة الكهف، وهذه القصة فيها دراسات متخصصة، منها كتاب (قصة صاحب الجنّتين) لفضيلة الدكتور سعيد عبدالعظيم، صادر سنة 2005م، وفي هذه القصة فصل قيّم هو الفصل الخامس من كتاب (ملامح من الهجص في تفسير القرطبي) لأحمد منصور، وثمة بحث عن (تداوليات الحوار القرآني

في قصة صاحب الجنتين) لباسم خضير، منشور 2018م، وفي هذه القصة حديث في كتاب (دراسات فنية في قصص القرآن) لمحمود البستاني.

وعلى صعيد الدراسات النَّصِّيَّة فهذه القصة جزء من سورة الكهف، وهذه السورة فيها دراسات قيِّمة، منها: (الاتساق والانسجام في سورة الكهف: الإحالة نموذجاً)، رسالة ماجستير بجامعة بجاية/ الجزائر، 2016م. ويبحث بعنوان (تماسك النَّصِّ وانسجامه في سورة الكهف) رسالة دكتوراه لمصطفى جلال، في جامعة أبي بكر بلقايد، ويوجد بحث عنوانه (العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف: دراسة نصية وظيفية)، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، المجلد 35، لسنة 2008م. ويوجد كتاب عنوانه (الترباط النَّصِّي في سورة الكهف: مقارنة لسانية نصية) 2017م. ورسالة موسومة بـ (بنية النَّصِّ في سورة الكهف: مقارنة نصية للاتساق والسياق) لشعيب محمود، جامعة منتوري. وكنت أتمنى أنَّ هذه الدراسات حظيت بإشارة من مؤلف الكتاب وهو يقدم له.

إنَّ عرض هذه الدراسات - وبإيجاز - يدلُّ على اتجاهات توظيف علم لغة النَّصِّ في دراسات القرآن الكريم، ومنه سورة الكهف التي تكتنف قصة صاحب الجنتين، ولكنَّ هذا يضعنا أمام سؤال، وهو: إلى أي حدِّ توافرت الأصالة العلميَّة في كتاب (مظاهر التناسب الدَّلالي والترباط النَّصِّي في قصة صاحب الجنتين) للدكتور حمدي الهدهد في ضوء هذه الدراسات وغيرها ممَّا لم أذكره؟

إنَّ الجوابَ لا يعيى الباحثُ المطالعُ للكتاب وهو يرى التجديد في المنهج والأسلوب؛ ففي كتاب صاحبنا من الجلَّة في المنهج ما لم نعهده في جلِّ الدراسات النَّصِّيَّة للسور القرآنية؛ فقد أسَّس الباحث الكريم منهجاً في التحليل النَّصِّي ينطلق من أصول علم الخطاب وعلم لغة النَّصِّ، يقوم على الانطلاق من بنية كبرى إلى البنى الصغرى في التحليل النَّصِّي، ويتكى على المنهج الإحصائي التحليلي في تفسير مكونات النَّصِّ على مستوى الأصوات والبنى الصرفيَّة، والتراكيب النحويَّة، ويكشف أسرارها وترباطها ومظاهر بيانها واتساقها مع البنية الكبرى.

إنَّ هذا المنهج الذي أسسه الباحث في دراسة هذه القصة أفضى إلى نتائج لا تجدها

في تلك الدراسات التي صالت وجالت في البحث عن التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّتين، أو في تلك الدراسات التي خصصت لسورة الكهف، وإن كانت تلامس بعضها. ومن هنا تجلّت أصالة دراسة الدكتور الهدهد في انتهاج منهج لم يحد عنه في استجلاء التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّتين، وهنا تكمن الإضافة العلمية ذات القيمة المعرفيّة.

رابعاً - مظاهر التناسب الدلالي والترابط النصّي في قصة صاحب الجنّتين: قراءة في الأسلوب العام

اتّسم الكتاب بملامح أسلوبية تسجّل للباحث الكريم، ومنها سلامة اللغة باستثناء هفوات طباعية شبه نادرة، لا تنال من الجهد العظيم للباحث ودقة لغته، ولكنها تذكرنا - والمجال في الكتاب مجال وعظ - أننا بشر ليس لنا من الكمال غير الاعتراف به لله، جلّ في عليائه. واتّسم الكتاب أيضاً بحسن تقسيمه وتسلسل أفكاره وترابطها واتساق منهجه العام، ونسجل للباحث تمكنه من تحقيق الأهداف المرسومة للكتاب والوصول إلى نتائج قيمة ذكرها في خاتمة الكتاب، وقدرته على توظيف المنهج الإحصائي في التحليل بأسلوب لا يداخله الملل من لغة الأرقام.

لقد أحسن الباحث استخدام البيانات الإحصائيّة والوقوف على قيمها الدلالية بما ينسجم مع أهداف البحث، واتّسمت بياناته الإحصائيّة بالدقة إلّا في موضع واحد لم أجده تفسيراً؛ فقد ورد في الصفحة (108) من الكتاب أنّ عدد الجمل التي أحصاها الباحث (41) جملة، ولكن الذي طالعتُه أنا في الجدول كان عدده (38) جملة. وفي الصفحة ذات الرقم (109) قال الباحث: «إذ جاءت الجمل الفعلية ممثلة في (34) أربع وثلاثين جملة، في حين جاءت الجمل الاسمية ممثلة في (17) سبع عشرة جملة. فالمجموع هنا (51) جملة، وما ذكره الباحث من توصيف الجمل في الجدول لا يعكس هذه الأرقام.

وهذه الأرقام تتعارض أيضاً مع ما ورد في ص (110)؛ إذ ذكر الباحث أنّ عدد الجملة الخبرية (39) جملة والإنشائية (5) جملة، فيكون المجموع (44) جملة بينما ذكر أنّ

عدد الجمل التي أحصاها (41) كما نص في ص (108).

أقول لعلّ هناك خللاً ما، أو أنّ هناك اعتبارات في الإحصاء لم تبد لي، وفي الإجمال لم تنعكس هذه المسألة على نتائج الدراسة، ولم تخلّ بما انتهى إليه البحث من نتائج في استنطاق قيم التحليل الإحصائيّ.

لقد اعتدّ الباحث عدته من المصادر والمراجع الكافية التي استعان بها في هذه الدراسة، وهي تنمّ عن إحاطة جيدة بمصادره ومراجعته في هذا المجال، وقد تنوعت المصادر بين التراث والكتب الحديثة لتعكس الجهد الذي بذله الباحث وهو يحلّل هذه القصة بتقنيات علم الخطاب وعلم اللغة النصّيّ الذي امتلك أدواته وأحسن استعمالها وتوظيفها.

وفي الختام أقول إنّ الدكتور حمدي الهدهد نجح في تحقيق أهداف الكتاب، وتمكّن من رجح النظر في مظاهر التناسب الدلالي والترابط النصّيّ في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وتمكّن من تحقيق إضافة علمية قيّمة بمنهجية جديدة تؤسّس منهجاً في التحليل النصّيّ التكاملّي الذي يقوم على الانطلاق من تحليل بنية النصّ الكبرى إلى البنى الصغرى المكونة له واستجلاء الترابط النصّيّ فيه، ولعلّ هذا المنهج في التحليل يشكل فتحاً للباحثين في دراساتهم عن التناسب والترابط في القرآن أو في الأدب والخطاب بشكل عام.